# ابن السقاء القرطبى مدبر دولة بنى جهور بقرطبة
## ( ٤٠٠ - ٤٤٥هـ / ١٠٤٨ - ١٠٦٣م )

دكتـــور
رضـــــوان البـــارودى
استاذ التاريخ الاسلامى والحضارة المساعد
كلية التربية بكفر الشيخ - جامعة طنطا

يتناول هذا البحث شخصية أندلسية طريفة من أهل مدينة قرطبة، عاشت خلال فترة حكم ملوك الطوائف بالاندلس ، وشاركت فى صنع أحداث هـــذه الفترة من تاريخ تلك البلاد ، ونعنى بها شخصية ابى الحسن ابراهيـــم بن محمد بن يحيى المعروف بابن السقاء القرطبى مدبر قرطبة ايام ابى الوليد محمد بن جهور ثانى حكام دولة بنى جهور . وقبل ان نتناول هذه الشخصيـــة بالدراسة والتحليل ، ونلقى الضوء على جوانب غير معروفة عنها ، يجدر بنا ان نلم بالعصر الذى ظهرت فيه هذه الشخصية ، والظروف والملابسات التـــى ادت الى ظهورها .

من المعلوم ان بلاد الاندلس شهدت فى نهاية القرن الرابع وبدايـــة القرن الخامس الهجريين ( ١٠ ، ١١م ) فترة من الاضطراب والتمزق السياســى ساد جميع جهاتها ، وكانت قرطبة - عاصمة الخلافة الاموية ولؤلؤة الاندلـــس فى ذلك الوقت - محور هذه الاضطرابات . ففى اعقاب فترة من الازدهـــار السياسى والحضارى شهدتها بلاد الإندلس ابان عصر الخليفة الامـــوى عبدالرحمن الناصر (١) وولده المستنصر (٢) ، ثم فى ايام الحاجب الشهيـــر

---

(١) تولى الحكم عام ٣٠٠هـ/٩١٢م وأطل خلافته عام ٣١٦هـ/٩٢٨م وظل يحكـــم الاندلس كخليفة منـــذ ذلك التاريخ حتى وفاته عام ٣٥٠هـ/٩٦١م .

(٢) تولى الخلافة الاموية من ٣٥٠هـ/حتى وفاته ٣٦٦هـ(٩٦١-٩٧٦م) .

المنصور بن ابى عامر [١] وابنه المظفر عبدالملك [٢]، بدأت الخلافة الاموية تهوى من عليائها سريعا على يد عبدالرحمن بن المنصور بن ابى عامر الملقب بشنجول [٣] الذى تولى الحجابة هوالاخر للخليفة هشام المؤيد . ولم يكن عبدالرحمن شنجول يشبه أخاه ولا أباه فى تدبير الامور وحسن السياسة ، بل على الضد من ذلك كان شابا مغرورا احمق طائشا ، منغمسا فى اللهو واللذات ، فأثار حفيظة الاندلسيين عامة واهل قرطبة خاصة ، ثم اقدم شنجول على خطوة كان لها اثرها البالغ فى التعجيل بنهايته ، حيث طمع فيما بقى للخليفة الاموى من سلطة روحية ، وأراد ان يستأثر بالسلطة الشرعية فى الدولة أى الخلافة ، ومارس ضغوط على الخليفة كى يعهد اليه بولاية العهد ، ولم يتردد فى ان يسبغ على نفسه من الالقاب ما يؤهله مستقبلا لتولى الخلافة مثل ناصر الدولة والناصر لدين الله [٤] . ولا شك ان هذا التصرف الذى لم يقدم أبوه المنصور ولا أخوه عبدالملك على انتحاله مع ما كان لديهما من امكانات وسطوة كان له اسوأ الاثر على الخلافة الاموية بقرطبة . فقد احدث موجة من الاستياء بين الاندلسيين عامة وافراد البيت الأموى خاصة .

---

(١) تولى الحجابة لهشام المؤيد الخليفة الأموى عام ٣٦٧هـ وظل بهذا المنصب حتى وفاته ٣٩٢/١٠٠٢م .

(٢) تولى هو الاخر الحجابة لهشام المؤيد من ٣٩٢هـ/١٠٠٢م حتى ٣٩٩هـ/١٠٠٨م .

(٣) من المعلوم ان المنصور بن ابى عامر كان قد تزوج من ابنة سانشو أبارکا Sancho Garces II Abarca ملك نبرة Navarra حيث اعتنقت الاسلام وتسمت باسم "عبده" ، فلما انجبت عبدالرحمن ، اطلقت عليه لقب سانشويلو Sanchuello اى سانشو الصغير احياء لذكرى ابيها ، وقد حرفت العامة هذا اللفظ الى شنجول . راجع : د. مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والاندلسى . بيروت ١٩٧٢ ص ٤٥٧.

(٤) ابن الخطيب : اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام . نشر بروفنسال بيروت ١٩٥٦ ص ٩٠-٩١.

لأنه يعنى خروج الخلافة من بيتهم ، ولذلك انتهز الأمويون وانصارهم من المضرية فرصة غياب عبدالرحمن شنجول غايا في الشمال ، وقاموا بخلع الخليفة هشام المؤيد وحاجبه ، وولوا أحد أفراد البيت الأموى وهو محمد هشام بن عبد الجبار بن عبدالرحمن الناصر الخلافة ولقبوه بالمهدى، وقد حاول شنجول العودة لقرطبة ليسترد مكانته ، ولكنه لقى مصرعه في نفس العام الذى تولى فيه الحجابة أى عام ٣٩٩هـ (١) .

وعقب خلع الخليفة هشام المؤيد ومصرع عبدالرحمن شنجول ، دخلت بلاد الاندلس فى مرحلة كثرت فيها الاضطرابات والفوضى نتيجة للصراع بين العناصر والطوائف المختلفة فى الدولة من صقالبة وبربر وأندلسيين ، واستقل حكام الولايات بولاياتهم وتمزقت الاندلس الى دويلات عرفت بدويلات الطوائف - وبالنسبه لقرطبه فقد سقطت الخلافة الأموية عام ٤٢٢هـ/١٠٣١ م عقب عزل آخر خلفائها هشام الثالث المعتد بالله (٤١٨هـ - ٤٢٢م / ١٠٢٧ - ١٠٣١م) وطرد أفراد الأسرة الأموية من قرطبة ، ثم أعلن الوزير أبو الحزم جهور انتهاء رسم الخلافة جملة لعدم وجود من يستحقها ، وصيرورة الأمر شورى بأيدى الوزراء وصفوة الزعماء أو ما عرف باسم " الجماعة " (٢) .

ولم يجد أهل قرطبة خيرا من أبى الحزم جهور شيخ الجماعة ليتولى أمر مدينتهم ، فهو ينتمى الى بيت من أعرق بيوتات الموالى

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب . تشربر وفنسال وكولان . بيروت ١٩٨٠ جـ٣ ص٥٦، وابن الخطيب : المصدر السابق ص٩٨ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق جـ ٣ ص١٥٢ - ابن الخطيب : المصدر السابق ص١٤٧-١٤٨ - كذلك نظر : د. مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والاندلسى ص٤٦٤.

الاندلسيين [١] والتى ترددت فيها الخطط والمناصب ، كما أنه سبق أن قاد أهل قرطبة فى ثورتهم ضد الحموديين وحلفائهم من البربر ، وفضلا عن ذلك فقد عرف عن أبى الحزم حصافة العقل ورجاحة الرأى . وقد وصف المؤرخ الأندلسى ابن حيان - والذى كان معاصرا لتلك الاحداث - عملية التغيير السالفة بقوله : " واجتمع الملأ من أهل قرطبة على تفويض أمرهم لأبى الحزم جهور ، وعددوا من خصاله مالم يختلفوا فيه ، فأعطوا منه قوس السياسة باريها ، وولوا أمرا الجماعة أمينها " [٢] . وقد ساس أبو الحزم قرطبة أحسن سياسة ، فلم ينفرد بحكم قرطبة بل أعلن أنه سيدبر الأمر حتى يتفق الناس على من يرونه فيسلم اليه زمام الأمور ، كما جمع الزعماء والقادة حوله وصار لا يبرم أمرا الا بعد الرجوع اليهم ، ولذلك سميت حكومته باسم " حكومة الجماعة " . ولم يترك داره وينتقل الى قصور الخلفاء ، ولم يحط نفسه بأى مظهر من مظاهر الرئاسة والأبهة [٣] ، وأخيرا عمل على نشر الأمن والامان فى قرطبة ، فطرد المفسدين منها ، واستمال طوائف البربر وزعمائهم دفعا لشرهم [٤] ، وفرق السلاح على أهل الأسواق ليدافعوا عن

---

(١) ينتسب أبو الحزم جهور الى بخت بن أبى عبده الفارسى مولى عبد الملك بن مروان ، ودخل ابنه يوسف الى الأندلس مع طلعة بلج بن بشر ، ثم انضم الى عبدالرحمن بن معاوية الملقب بالداخل وتولى الحجابة له ، وظل أبناءه واحفاده فى خدمة الأمويين حتى سقوط دولتهم . راجع : كتاب الصلة . القاهرة ١٩٦٦ . القسم الثانى ص ٥٤٧ - ابن عذارى : المصدر السابق حـ٣ ص ١٨٥ - ١٨٦ . انظر كذلك : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى . القاهرة ١٩٨٨ ص ٢١ .

(٢) ابن بسام الشنترينى : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة . تحقيق احسان عباس - ليبيا - تونس ١٩٧٥ . القسم الاول المجلد الثانى ص ٦٠٢ .

(٣) عبدالواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب . تحقيق محمد سعيد العريان . القاهرة ١٩٦٢ ص ١١١-١١٢ .

(٤) ابن بسام : الذخيرة . القسم الاول . المجلد الثانى ص ٦٠٣-٦٠٤ - ابن عذارى البيان . المغرب حـ٣ ص ١٨٦ .

أنفسهم اذا ما تعرضوا لهجوم من المفسدين ، فاستتب الأمن فى قرطبة وانعكس ذلك على الأحوال الاقتصادية بها ، فرخصت الاسعار وحل الرخاء محل الكساد . وبالجملة فقد نجح أبو الحزم جهور فى اعادة الهدوء والأمان لقرطبة حتى صارت ملجأ وملاذا للزعماء والرؤساء من ملوك الطوائف المخلوعين مثل عبد الملك بن سابور صاحب اشبونه ( لشبونه حاليا ) ، حينماانتزعها منه أبو عبدالله محمد بن مسلمة المكناسى المعروف بابن الأفطس ، وعبد العزيز البكرى ، صاحب وليه وجزيرة سلطيش الذى لجأ الى قرطبة فيما بعد عندما استولى المعتضد بن عباد على ملكه ، كما لجأ لقرطبة أيضا القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء عندما استولى عليها المعتضد بن عباد (١) . وتوفى أبو الحزم جهور ليلة الجمعة السادس من محرم عام ٤٣٥هـ/١٥أغسطس ١٠٤٣ م .

خلف أبو الوليد محمد أباه فى حكم قرطبة واقتفى أثره فى اصطناع ذوى الفضل من أهل العلم والأدب كل فى اختصاصه ، كما نهج أبيه فى حسن التصرف والمحافظة على الأمن ومراعاة الانصاف (٢) ، وكان الوزير والأديب ابن زيدون والمؤرخ الكبير ابن حيان من بين من عملوا مع أبى الوليد محمد .

## ابن السقاء ودولة بنى جهور :

فى عام ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م غضب أبو الوليد محمد بن جهور على ذى الوزارتين أبى الوليد بن زيدون وزج به فى سجن قرطبة (٣) ، وعين أبا الحسن ابراهيم بن

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق : حـ٣ ص٢١٣ ، ٢٣٧ ، انظر ايضا : دكتوره : سحر سالم : تاريخ بطليوس الاسلامية وغرب الاندلس فى العصر الاسلامى ، الاسكندرية ١٩٨٩ حـ١ ص٣٦٣-٣٦٤ .

(٢) ابن عذارى : نفس المصدر السابق ص١٨٧ .

(٣) حول الاسباب والظروف التى أدت الى غضب ابن الولدين محمد بن جهور على وزيره ابن زيدون ، راجع : بسام : الذخيرة ، القسم الاول ، المجلد الاول ص٣٣٨-٣٣٩ . الفتح بن خاقان : قلائد العقيان فى محاسن الأعيان ، القاهرة ١٣٣٠هـ ص٧١ ، المقرى : نفح الطيب من غصن اندلس الرطيب ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٦٨ حـ٤ ، ص٢١٠ ، محمد عبدالله عنان : دولة الطوائف ص٢٥ .

محمد بن يحيى المعروف بابن السقاء وزيرا لهومدبرا لدولته .[١] ولم تزودنا المصادر بأية تفاصيل عن تاريخ مولده ولاعن سيرته وحياته الخاصة، في حين أطالت في ذكر دوره في توجيه سياسة قرطبة الداخلية والخارجية . فابن حيان - وهو أكثر من تحدث عنه - يذكر أن أبا الحسن ابراهيم كان من أسرة فقيرة متواضعة ، وأنه كان يكابد شظف العيش منذ نعومة أظافره، وأنه كان يعالج السقط [٢] بسويقة ابن ابى سفيان في قرطبه ، ثم لم يلبث ان ترك هذا العمل واشتغل مع والده محمد السقا الذي كان يعمل في الأحباس . وعن هذا الطريق اتصل أبو الحسن ابراهيم بالفقهاء والقضاه وأخذ عنهم . ويستطرد ابن حيان في وصف حياة ابن السقاء قبل أن يتولى منصبه مدبرا لدولة بني جهور ، فيذكر أنه كان يقيم مع اخوته في منزل صغير ورثه عن أبيه غربي المسجد الجامع ، وأن هذا المنزل كان ضيقا لدرجة أن ابراهيم كان " لايجد بينهم الى فد ساقة سبيلا [٣] . وقد ظل ابن السقاء يتدرج في المناصب حتى تولى النظر في المسجد الجامع بقرطبه ، وتمكن بفضل ما أوتى من ذكاء ودهاء من كسب ثقة أبي الوليد محمد ، فضمه الى زمرة العاملين في خدمته ، فأظهر نبوغا وتفوقا ملحوظين في عمله، ولما غضب أبو الوليد على وزيره ابن زيدون وعزله من منصبه ، ولى ابن السقاء بدلا منه مدبرا لدولته . وقد اعتبر ابن حيان هذه الخطوة من قبل أبي الوليد محمد بن جهور من أكثر الخطوات سدادا وتوفيقا . يقول ابن حيان " وصار من المناحج للدولة الجهورية أن استعان فيها الوزير الرئيس أبو الوليد جهور[٤] على أمره بالامين أبي الحسن ابراهيم بن محمد ، متولي النظر في المسجد الجامع على قديم الأيام.. فقلده القيام بأعباء دولته ، فأصاب نقافا يخدم، ونفذ فيما يريد عنه كالسنان اللهذم ، لجودة استقلاله ، ورجاحة وزنه [٥].

---

(١) ابن عذارى : البيان الغرب حـ٣ ص٢٣٢ ـ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر . ط: بولاق ١٢٨٤ هـ. حـ٤ ص١٥٩.

(٢) السقط : الردىء من المتاع والطعام.

(٣) ابن بسام :الذخيرة . القسم الرابع . المجلد الاول ص٢٣٨ـ٢٣٩.

(٤) هكذا وردت في النص وصحتها /أبو الوليد بن جهور .

(٥) ابن بسام : نفس المصدر السابق والصفحة .

وقد اطلق على ابن السقاء عدة ألقاب هى :

١- " مدبر قرطبة " و" مدبر الملك الجهورى " (١)
٢- " قيم دولة بنى جهور " (٢)
٣- " الأميـــن " (٣)
٤- " وزير دولة بنى جهور " (٤)

ونتساءل هل كانت هذه الألقاب تشير الى مناصب أو خطط (٥) تولاهـــا ابن السقاء ، أم أنها كانت مجرد ألقاب تشريفية قصد بها رفع قدره والاشادة بكفاءته ؟ للاجابة على ذلك لابد من معرفة نظم الادارة والحكم فى الاندلس فى هذه الفترة حتى يمكن أن نقرر أى الافتراضين أصوب . وبالنسبة للقـــب " المدبر " فانه لم يطلق على أحد من رجال الحكم والادارة فى الاندلس الا على ابن السقاء ، كما أطلق على يوسف بن اسماعيل بن نغراله اليهودى وزير باديس بن حبوس الصنهاجى صاحب غرناطة ابان فترة سلوك الطوائف ، فقد ذكر ابن بسام أن ابن نغراله كان يسمى " بالناغيد " ومعناها " المدبـــر " بالعربية (٦) . وفى ذلك دلالة على أن لقب مدبر قرطبة انما أطلق علـــى ابن السقاء كنوع من التشريف أو الاشادة بكفاءته ومقدرته على ادارة شـــئون قرطبة .

---

(١) نفس المصدر القسم الاول . المجلد الثانى ص٧٦٧ ـ ابن عذارى : البيان المغرب حـ٣ ص٥٦ .

(٢) ابن سهل الاندلسى : الاحكام الكبرى : وثيقة مستخرجة من كتاب الاحكام الكبرى ، دراسة وتحقيق د . محمد عبدالوهاب خلاف . مجلة اوراق . العدد ٥ ـ ٦ ، مدريد ١٩٨٢ ـ ١٩٨٣ ص١٠٢ .

(٣) ابن بسام . المصدر السابق . القسم الثانى المجلد الاول ص٢٣٧ .

(٤) نفس المصدر السابق والصفحة ، ابن خلدون : العبر حـ٤ ص١٥٩ .

(٥) الخطط (ومفردها خطة) بضم الخاء بمعنى النظام Institution ، فيقال خطة الوزارة بمعنى نظام الوزارة أما خطة بكسر الخاء فتعنى الحى أو المنطقة فيقال خطط القاهرة أو الشام بمعنى أحياء القاهرة أو الشام ، وعموما فالخطة بضم الخاء هى ما يدبر عقلا ، والخطة بالكسر هى ما يدبـــر مكانا . راجع : د . مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والاندلسى ص٣٥٨ ح ١

(٦) ابـن بسام : الذخيرة : القسم الاول المجلد الثانى ص٧٦٧ .

أما لقب القيم أو قيم دولة ابن جهور، فمن المعروف ان لفظ القيم كان يطلق في الاصل على من يتولى الاشراف على خدمة المسجد أو الحمام (١) ونظافتهما، كما استخدم أيضا بمعنى المشرف على الاحباس أو الاوقاف (٢) وخاصة في الاندلس ، وقد ورد لفظ القيم بمعنى صاحب الاحباس في نقش على لوح رخام عثر عليه في اشبيلية مؤرخ في نهاية ربيع الأول عام ٤٧٢هـ (نهاية سبتمبر ١٠٧٩م) باسم المعتمد على الله القاسم محمد بن عباد صاحب اشبيلية ، يتضمن بناء أعلى منارة مسجد اشبيليه التي تهدمت بفعل الزلزال الذي وقع باشبيليه في بداية شهر ربيع الأول من نفس العام ، يقول النقش " .... عمل ابراهيم ابن أفلح الرخّام على يدى الأمين صاحب الاحباس القيم أبى عمر أحمد بن طيب وفقه الله " . (٣) ويوضح هذا النقش أن صاحب الاحباس أو القيم كان يوصف أيضا بالأمين وهى نفس الألقاب والنعوت التي أطلقت على ابن السقاء ، ويبدو أن لقبى الأمين والقيم ارتبطا بابن السقاء منذ كان يعمل في الاحباس مع والده كما ذكرنا .

يبقى لقب الوزير ، ونحن نعلم أن هذه الخطة ( الوزارة ) فقدت مدلولها في بلاد الاندلس منذ أن ظهر منصب الحاجب أيام الأمير الاموى عبدالرحمن الاوسط ، عندما أجرى تغييرا جذريا في نظام الوزارة، بحيث أصبح الحاجب يتولى ما يمكن أن نسميه الآن برئيس الوزارة (٤) . أما كلمة وزير فصارت

---

(١) ابن الصيرفى :قانون ديوان الرسائل. نشر على بهجت . القاهرة :١٩٠٥ ص٤٤.

(٢) د. حسن الباشا :الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية. القاهرة ٩٦٦ جـ٢ ص٩٠٠.

(٣) Levi-Provencal:Inscription Arabes D'Espagne, Paris, 1931,Tomo I,PP.38-39.
د. عبدالعزيز سالم :في تاريخ وحضارة الاسلام في الاندلس. الاسكندرية ١٩٨٥ ص١٦٧ـ د. كمال بومصطفى : الاحباس في الاندلس. الاسكندرية ١٩٨٩ ص٤٦.

(٤) حول التغيير الذى اجراه الامير عبدالرحمن الاوسط فى نظام الوزارة بالاندلس، راجع ابن حيان :المقتبس من أنباء أهل الاندلس . تحقيق د. محمد على مكى . القاهرة : ١٩٧١ ص١٦٨ ـ ابن خلدون ـ :مقدمة كتاب العبر ص١٩٩ـ٢٠٠ـ المقرى : نفح الطيب جـ١ ص٢١٦.

تمنح فى الاندلس للطبقة الوسطى من الموظفين والكتاب وشيوخ القرى (١). بل أن البعض اعتبر أن اطلاق لقب وزير عليه يمثل نوعا من الاهانة لمكانته (٢). وبناء على ذلك، يبدو أنه اطلق على ابن السقاء لقب وزير منذ أن كان يعمل فى الأحباس أو حينما التحق بخدمة أبى الوليد بن جهور.

وما دمنا بصدد الحديث عن هذه الألقاب السالفة ومدلولاتها، ينبغى أن نشير هنا الى أن هذه الألقاب والوظائف كانت معروفة فى بلاد المشرق الاسلامى، فالمدبر خطة عرفت عند الفاطميين بمصر يتولاها احد كتاب الخليفة وله حق تصريف الأمور، ولكن بعد الرجوع للخليفة، (٣) كما عرف هذا اللقب أيام دولة المماليك حيث أطلق على الوزير أو النائب أو النائب الكافل لقب مدبر الدولة ومدبر المملكة (٤). أما لفظ القيم فقد استخدم أيضا فى مصر المملوكية بمعنى المشرف على الأحباس أى نفس الاستخدام فى الاندلس (٥).

---

(١) د. مختار العبادى: دراسات فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية. الكويت ١٩٨٥ ص١٥٧.

(٢) مما يروى فى هذا المجال أن زيرى بن عطية زعيم قبيلة مغراوة الزناتية قد احتقر لقب الوزير الذى انعم عليه به المنصور بن أبى عامر وصاح غاضبا فى وجه أحد رجاله حينما ناداه بالوزير: "ويحك وزير؟ والله أمير ابن أمير، واعجب من أبى عامر ومخرقته، لان تسمع بالمعيدى خيرا من أن تراه" راجع ابن ابى زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس. نشر نورنبرج أوبسالا ١٨٤٣. ص٦٥.

(٣) ابن الصيرفى: الاشارة الى من نال الوزارة. تحقيق عبدالله مخلص. القاهرة ١٩٢٤ ص٢٥-٢٦. وعبدالمنعم ماجد نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر. القاهرة ١٩٧٣ جـ١ ث ٧٩.

(٤) ابن فضل الله العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف. القاهرة ١٣١٢هـ ص ٧٤ - القلقشندى صبح الاعشى فى صناعة الانشا. القاهرة ١٩١٣، جـ٨ ص٨٢.

(٥) د. حسن الباشا: الفنون الاسلامية والوظائف. جـ٣ ص ١٠٤٣-١٠٤٤.

نعودالى ابن السقاء فنقول أنه كان يستحق فعلا عبارات المدح التى كالها لهابن حيان نظرا لسياسته التى اتبعها فى قرطبة سواء فى الداخل أو فى الخارج . ففى مجال السياسة الداخلية عمل ابن السقاء على استمرار حالة الأمن بقرطبة والتى بدأت منذ أيام أبى الحزم جهور ، فضرب بشده على أيدى المفسدين ، ولكنه فى نفس الوقت عامل أهل قرطبة معاملة طيبة حتى اكتسب احترامهم ومحبتهم (١)، لذلك عاشت قرطبة فترة ازدهار من جديد بفضل سياسته تلك .

أما فى مجال السياسة الخارجية لدولة بنى جهور تلك الفترة التى تولى فيها ابن السقاء تصريف أمور قرطبة ، فلم توضح المصادر الدور الذى قام به فى هذا المجال ، ومع ذلك فيمكننا أن نستنبط من خلال الروايات التاريخية والنصوص أنه كان له دور كبير فى توجيه سياسة قرطبة الخارجية،هذه السياسة لاتختلف كثيرا عما كانت عليه أيام أبى الحزم جهور ، وتقوم على المحافظة على استقلال قرطبة أمام العوا صف السياسة التى تجتاح الأندلس ، قرطبة موقف الحياد بين دويلات الطوائف المتصارعة ، بل ومحاولة التوفيق بين هذه الدويلات ، وقد وضحت هذه السياسة عندما قام أبو الوليد محمد بن جهور بالتوسط بين كل من المظفر بين الأفطس صاحب بطليوس والمعتضد بن عباد صاحب اشبيلية عندما نشبت الحرب بينهما عام ٤٣٩هـ ١٠٤٧ م بسبب مهاجمة ابن عباد لمدينة لبلة (٢) واستغاثة صاحبها بالمظفر بن الأفطس (٣).

---

(١) KHALID SOUFI : Los Banu Yahwar en Cordoba, Cordoba. 1968, P.76.

(٢) لبله Niebla :مدينة تقع فى جنوب غرب الاندلس وكان اسمها فى القديم Hipla وتعرف فى المصادر الجغرافين باسم المدينة الحمراء ، وتشتهر بكثرة اشجار الزيتون ، راجع :الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، نشر مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة . بدون تاريخ حـ ٢ ص ٥٤١ ـ ابن الشباط : وصف الاندلس . نشر د . مختار العبادى . مدريد ١٩٧١ ص١٤٥.

(٣) ابن بسام : الذخيرة : القسم الثانى . المجلد الاول ص٢٣٤ـ ابن عذارى : البيان المغرب ـ حـ٣ص٢١٠ـ د.سحرسالم :تاريخ بطليوس الاسلامية حـ١ ص٣٩٤ـ٣٩٥.

ثم قام أبو الوليد بنفس الجهود بين الرجلين عام٤٤٣هـ/١٠٥١م (١) . كذلك وقف ابن السقاء بالمرصاد لاطماع المعتضد بن عباد الرامية الى ضم قرطبة الى دائرة نفوذه ، وقد أوضح الفتح بن خاقان سياسة المعتضد تجاه قرطبة بقوله " وكانت قرطبة منتهى أمله ، وكان روم أمرها أشهى عمله " (٢) ، وقد قام ابن عباد بعدة محاولات فى هذا الشأن ، ومن ضمن هذه المحاولات ارغامه لأبى الحزم جهور على الاعتراف بالخليفة المزعوم هشام المؤيد، الذى ادعى ابن عباد بأنه عثر عليه مختفيا بمسجد اشبيليه ، وأن هذه الخليفة عهد لاسماعيل بن محمد بن عباد بحجابته (٣) . وعلى الرغم من أن أبا الحزم كان يدرك تماما أن الخليفة هشام المؤيد قدمات منذ زمن بعيد، الا أنه خشى من سطوة المعتضد واعترف بهذا الخليفة المزعوم فترة من الوقت ، ثم أعلن بعد ذلك تكذيبه لنبأ العثور على هشام المؤيد . ولم تقتصر محاولات ابن عباد على ذلك ، بل قام بتوجيه حملة عسكرية قوية تحت قيادة ولده اسماعيل لغزو قرطبة ، ولكن هذه الحملة منيت بالفشل نتيجة لتدخل باديس بن حبوس الصنهاجى صاحب غرناطة ووقوفه الى جانب بنى جهور ، وقدتمت تلك الحملة عام ٤٣١هـ/١٠٣٩م (٤) . ثم تكررت محاولة ابن عباد غزوقرطبة مرة أخرى عام ٤٥٠هـ/١٠٥٨م عندما بعث المعتضد ولده اسماعيل مرة أخرى على رأس جيش كبير الى قرطبة وتمكن اسماعيل من الوصول الى اطلال مدينة الزهراء الواقعة على بعد خمسة أميال غربى قرطبة ، بيد أنه خشى

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق حـ٣ ص٢١٣ ـ ابن الخطيب ـ اعمال الاعلام ( نشر بروفنسال) ص١٥٦.

(٢) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص١٠ ـ المقرى : نفح الطيب : حـ١ ص٦٢٥.

(٣) حول قصة الخليفة هشام المزعوم ( أو خلف الحصرى ) راجع التفاصيل فى : عبدالواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب : ص١٥٢ ـ ابن عذارى : المصدر السابق حـ٣ ص٢٠٠ ـ ابن الخطيب : اعمال الاعلام ( نشر بروفنسال) ص ١٤٣ـ د.عبدالعزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس. الاسكندرية ١٩٨٤ حـ١ ص١٢٧.

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب حـ٣ ص٢٠١ـ٢٠٢.

من تدخل باديس بن حبوس الصنهاجي ، فآثر الانسحاب من أمام قرطبة (١) . ولا شك ان تدخل الزيريين أصحاب غرناطة الى جانب بني جهور في مواجهة ابن عباد قد حد كثيرا من أطماع ابن عباد ، لذلك عمل ابن السقاء على توطيد علاقته ببني زيري وحرص على أن يرتبط معهم برباط الصداقة والود. وفي هذا المجال قام بزيارة لغرناطة رسولا من قبل أبي الوليد بن جهور ، وعلى الرغم من أن المصادر لم تشر صراحة الى هذه الزيارة ولا تاريخها . الا أننا يمكن ان نستنتج خبرها مما ذكره ابن بسام عند حديثه عن أبي عبيد البكري حيث يقول " قال ( يقصد أبا عبيد البكري ) يخاطب أبا الحسن ابراهيم بن محمد المعروف بابن السقاء وزير ابن جهور ، وقد خرج رسولا الى باديس بن حبوس بغرناطة :

كذا في بروج السعد ينتقل البدر ... ويحسن حيث احتل أثاره القطر
وتقتسم الأرض الخطوط فبقعة ... لها وافر منها وأخرى لها نزر
لذلّ مكان غاب عنه مملكي ... وعزّ مكان حلّه ذلك البدر
فلو نقلت أرض خطاها لأقبلت ... تهنيه بغداد بقربك أو مصر (٢)

كذلك كان ابن السقاء على علاقة طيبه باسماعيل بن يوسف بن نغزالة وزير باديس بن حبوس ، فقد نقل عن ابن السقاء أنه مدح ابن نغرالة وقال : " لا بأس باسماعيل لولا أنه نسي اليهودية " . (٣)

ولا شك أن سياسة ابن السقاء الخارجية وخاصة علاقته الوطيدة مع غرناطة قد اقلقت المعتضد بن عباد ، لأنه - كما سبق القول - كان يطمع في ضم قرطبة وغيرها ن دويلات الطوائف الى دائرة نفوذه، ووجود شخصية حازمة مثل ابن السقاء في قرطبة من شأنها أن تعرقل مشاريعة التوسعية وتفسد عليه خططه ، ولم يجد ابن عباد وسيلة للتخلص من ابن السقاء سوى تأليب عبد الملك

---

(١) نفس المصدر السابق حـ٣ص٢٤٨ . KHALID SOUFI:OP,CIT.PP.65-66.
(٢) ابن بسام : الذخيرة : القسم الثاني ، المجلد الأول ص٢٣٧ .
(٣) نفس المصدر السابق ، القسم الأول ، المجلد الثاني ص٧٦٧ .

بن أبى الوليد ضد مدبر دولتهم ، وظل به حتى أقنعه بأنه لا سلطان لبنى جهور مع وجود ابن السقاء ، وأنه يجب التخلص منه حتى تستقيم الأمور لهم .

## نكبة ابن السقاء :

على الرغم من الجهود الكبيرة التى بذلها ابن السقاء فى سبيل الاحتفاظ بأمن وسلامة واستقلال قرطبة ، ورد الطامعين عنها ، الا أنه لقى مصرعه على يد عبدالملك بن أبى الوليد ويروى المؤرخون أن أبا الحسن ابراهيم المعروف بابن السقاء لقى مصرعه فى يوم السبت لسبع بقين من رمضان عام ٤٥٥ هـ ( ١٩ سبتمبر ١٠٦٣ م ) نتيجة لمؤامرة دبرها عبدالملك ، فقد جهز عدد من أعوانه وأدخلهم فى بعض الغرف من دار أبيه ، وأعطاهم السلاح . فى حين أخذ هو سكينا بيده . ولما أتى ابن السقاء مع عدد يسير من أتباعه ، بادره عبدالملك فضربه بالسكين ، ثم خرج بقية أعوان عبدالملك وقطعوا رأسه وجعلوها فى رمح وطافوا بها أنحاء قرطبة حتى وصلوا الى احدى دور ابن السقاء كانت العامة تسميها " دار اللذة " فرميت رأسه للعامة فعاثت فيها ، كما قام عبدالملك بالاستيلاء على تلك الدار وما فيها من متاع وفرش وغلمان ، ثم أطلق سراح المسجونين الذين حبسهم ابن السقاء لأمور شتى ، وأخيرا طارد عبدالملك أسرة ابن السقاء وحاشيته ، ففر منهم من فر وقتل من وجد منهم . أما شقيق ابن السقاء فقد اعتصم بمنار المسجد الجامع فنجا من بطش اتباع عبدالملك . كما قامت العامة بنهب دور ابن السقاء الأخرى ودور اتباعه . ولم يزد رد فعل ابى الوليد محمد بن جهور على مجرد اعلان دهشته لما فعله ابنه دون استشارته ، ثم أمر بستر جسد ابن السقاء الذى كان مطروحا بدهليز الاصطبل ، ثم خرج الى المسجد الجامع لتهدئه الأمور حيث أمر بعد ذلك بضم رأس ابن السقاء الى جسده ودفنه فى المسجد المعروف بمسجد ابن السقاء ، ولكن عامة قرطبة أقدموا على نهب هذا المسجد واستولوا على الثريات الموجودة به ، كما عطلت الصلاة فيه (١) .

---

(١) ابن بسام : المصدر السابق . القسم الرابع . المجلد الأول ص ٢٤٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب حـ٣ ص ٢٠١ـ Khalid Soufi:OP-Cit.P92

وهكذا ، وعلى هذه الصورة البشعة ، انتهت حياة مدبر دولة بن جهور، واذا حاولنا أن نتلمس الأسباب التى أدت الى نكبة هذا الرجل ، فاننا سنجد أنفسنا أمام ثلاثة آراء :

الرأى الأول : ويمثله المؤرخ والأديب الأندلسى ابن حيان، الذى رأى أن عبدالملك بن أبى الوليد أقدم على اغتيال مدبر الدولة لأن هذا الأخير استأثر بالسلطة والنفوذ والمال دون بنى جهور ، وصار يتصرف فى أمور الدولة كيفما يريد دون الرجوع الى أبى الوليد بن جهور الحاكم الشرعى لقرطبة ، ويضيف ابن حيان أن ابن السقاء فى سبيل تدعيم سلطته استعان بمجموعة من الجند الذين يدينون له بالولاء ، ويصفهم بأنهم " من أراذل الطبقات ومصاص شرار الناس " (١) . كما كان ابن السقاء يدير شئون الدولة من داره بعد أن نقل كافة الدواوين من دار الخدمة الى داره، وأدى ذلك التصرف الى انصراف الناس عن بيت أبى الوليد محمد بن جهور وتحولهم الى دار ابن السقاء، وأصبح ذوو الحاجات يقصدون دار ابن السقاء باعتباره صاحب السلطة والنفوذ فى قرطبة ولم يكن ابن السقاء يحسن معاملة من يقف على بابه من ذوى الحاجات ، كما أن مساعديه الذين عينهم لتنظيم عملية دخول الناس عليه ، لم يكونوا مؤهلين أو مدربين على القيام بمثل هذا العمل ، لان من يقوم بمثل هذا العمل من وجهة نظر ابن حيان ، لابد أن يستقبل الناس ببشاشة ، ويرتب قعودهم بالدهليز ويطمعهم بخروجه أو يعتذر اليهم عنه بما يؤيسهم منه ، فيذهبون لسبيلهم معافين . ولكن مساعدى ابن السقاء كانوا يسيئون الادب مع الناس ويردون عليهم بكل عنف " ولربما دقوا الأنوف ونتقوا الشوارب غير مميزين لطبقة الناس " . (٢) .

وبالاضافة الى ذلك ، لم يكن ابن السقاء فى سلكه الشخصى خاليا من المثالب ، فهو رجل عهر الخلوة لزهده فى النساء وكلفه بالغلمان، حتى أنه اتخذ دارا أخرى غير مسكنه خصصها للهوه وعبثه ، وهذه الدار أطلقت العامة

---

(١) ابن بسام : نفس المصدر . القسم الرابع . القسم الأول ص ٢٤١ .

(٢) نفس المصدر السابق، القسم الرابع المجلد الأول ص ٢٤٢ .

عليها اسم " دار اللذة " فقد كان ابن السقاء يذهب اليها عقب انتهاء عمله كي يستريح فيها ، أما في الليل فيرجع الى داره التي بها أهله . ولم يدر أحد من الناس بما كان يحدث في هذه الدار من صنوف الفساد والانحلال الا بعد مصرع ابن السقاء حيث اعترف غلمانه وعبيده وبطانته بما كان يدور في هذه الدار.(١).

ولم تكن هذه كل مساوىء ابن السقاء كما يذكر ابن حيان ، بل أنه استبد بالأموال ومنعها عن بني جهور ، ولذلك ازدادت ثروته بصورة غير طبيعية خاصة وأنه في بداية حياته كان فقيرا معدما ، ولكنه بعد أن تولى أمر قرطبة اقتنى الدور والضياع ، ومع الأيام ازداد غرور ابن السقاء وازدادت استهانته ببني جهور وبأهل قرطبة ، حتى أن واحدا من أفراد بطانته حاول أن ينبهه الى خطورة أعماله وما يرتكبه من الفواحش ، فرد عليه ابن السقاء : وما علينا ؟ والله ما بها كلب ينبح فيجتمع اليه "(٢).

هناك نقطة أخرى ذكرها ابن حيان للدلالة على سوء تصرف ابن السقاء في إدارة شئون قرطبة وتتعلق بهدم قصور بني أمية سواء قصورهم القديمة بقرطبة أو قصورهم بالزهراء ، فقد عهد ابن السقاء الى أحد أعوانه ويسمى ابن باشه ويعرف بالأصغر (أو الاصفر)(٣) بمهمة جمع أدوات البناء من

---

(١) نفسه ص٢٤٣.

(٢) نفس المصدر السابق والصفحة.

(٣) وصف ابن حيان ابن باشه هذا بأنه "هدام القصور ومبور المعمر.. بيده بادت قصور بني أمية الرفيعة ودرست آثارهم البديعة وحطت اعلامهم المنيعة" ( ابن بسام الذخيرة القسم الاول المجلد الثاني ص٦٠٠). وقد أثارت شخصية ابن باشة انتباه المستشرق الاسباني اميليو جارثيا جو مز Emilio Garcia Gomez فذكر أن اسم باشه لم يظهر في أسماء الأعلام الاندلسية الا مرة واحدة في شخص يسمى محمد بن باشه (بتشديد الشين ) بن أحمد المقرىء. وهو من أهل أنده Onda بولاية بلنسية (ت ٥١٥هـ/١١٢١م) وفقا لما ذكره الضبي في بغية الملتمس، اما ابن =

.....

= بشكوال فى الصلة فقد ذكر هذا الشخص باسم محمد بن باسّه المقرى (بالسين المشددة) الاندى . ويرى جارثيا جومز أنه من السهل الخلط بين الشدة مع الضمة والنقاط الثلاث التى توضع فوق حرف الشين ، وبناء على ذلك يفترض جارثيا جومز ان ابن باشه الذى عهد اليه ابن السقاء بمهمة هدم ما تبقى من قصور بنى أمية يحتمل أن يكون اسمه ابن باسه ( بالسين ) خاصة وأن اسم باسه يصادفنا بعد ذلك فى عصر الموحدين حيث نجد العريف أحمد بن باسه الذى قام بتشييد جامع اشبيلية الاعظم (الاخيرالدا ) La Giralda واذا صح هذا الافتراض فان الاضرار التى سببها ابن باسه (أو ابن باشه ) فى القرن الخامس الهجرى ، قد تم تعويضها فى القرن السادس الهجرى على يد ابن باسه آخر ، حيث استعان هذا الاخير برؤوس صغيرة من اطلال الزهراء فى بناء أعلى مئذنة جامع اشبيلية . وعلى الرغم من أن جارثيا جومز بنى نظريته تلك على مجرد الخلط بين كلمتى باشه وباسه ، واحتمال ان يكون هناك خطأ من الناسخ فى ذكر اسم الشخص الذى كلفه ابن السقاء بمهمة هدم ما تبقى من قصور الامويين ، الا أننا لايمكن أن ننكر وجهة النظر تلك ، ويمكن القول أن بها قدرا من الطرافة خاصة وأن أحمد بن باسه الذى ظهر فى عصر الموحدين كان من أشهر المهندسين فى ذلك العصر، وعملية هدم اطلال قصور الامويين بقرطبة والزهراء تحتاج الى شخص له دراية بعمليات البناء والهدم أى من البنائين أو المهندسين حتى يمكن فك المبانى والاعمدة وباقى الانقاض بصورة يسهل استخدامها بعد ذلك ، واذا ما علمنا ايضا أن هناك اسرة مغربية تسمى اسرة باسه مازالت موجودة حتى الوقت الحاضر فى بعض نواحى المغرب وخاصة فى مدينة فاس يشتهر كثير من أفرادها بانهم من مهرة البنائين ، فان القول بوجود صلة بين ابن باشه الاصغر وأحمد بن باسه مهندس الموحدين يبدو قولا مقبولا الى حد بعيد .

راجع E. Garcia Gomez: Algunas Precisiones Sobre La runia de la Cordoba Omeya, R.Alandalus, ano XII, = Fasc.2,1947.P.287-

أطلال هذه القصور ، وبيع الاعمدة الرخامية ونضار الخشب وخالص النحاس وصافى الحديد والرصاص ، وكانت رسل ملوك الأندلس تأتى لابن السقاء لشراء تلك الانقاض بأغلى الأثمان ، بحيث لم يبق من هذه القصور الرائعة الا كوم رماد ومصائب صباب ، ثم اشعل النيران فيما تبقى من هذه القصور (١) .

الرأى الثانى : ويرى أصحاب هذا الرأى أن مصرع ابن السقاء تم نتيجة لتحريض المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية لعبد الملك بن جهور ضد ابن السقاء ، ويدلل أصحاب هذا الرأى على صحة قولهم بأن ابن السقاء لما قدمه أبو الوليد بن جهور على أموره كلها ، " فضبطها أحسن ضبط ، وساسها احسن سياسة ، فغص به عباد صاحب اشبيلية وضعف طمعه بسببه فى قرطبة " . (٢) وقد انتهز المعتضد فرصه زيارة عبدالملك فى اشبيلية فأكرم وفادته ، وأخذ يحرضه على ابن السقاء وأغراه بقتله لينفرد بالحال مكانه . (٣)

الرأى الثالث : ويمثله المؤرخ والأديب ابن بسام الشنترينى ، الذى جمع بين الرأيين السالفين ، فذكر أن عملية اغتيال ابن السقاء تمت بناء على تحريض المعتضد بن عباد لعبد الملك بن أبى الوليد ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان ازدياد نفوذ ابن السقاء فى قرطبة سببا ثانيا دفع عبد الملك الى ارتكاب ما فعله ، وأوضح ابن بسام رأية ذلك بالقول " .... وكان عباد قد خامر صدره من شأن ابن السقاء مدبر دولة بنى جهور مالا يسعه بوح ولا كتم ، ولا يردعه سفه ولا حلم ، شرقا بحسن سيرته ، وفرقا من استمرار سريرته ،

---

= الضبى : بغية الملتمس فى تاريخ رجال الاندلس . القاهرة ١٩٦٧ ص٧٨ـ ابن بشكوال :
كتاب الصلة : حـ٢ص٥٧٢ ـ ابن صاحبه الصلاة : المن بالامامة على المستضعفين . تحقيق عبدالهادى التازى ـ بيروت ١٩٦٤ .ص١٣٩ـ١٤٠ والهامش رقم (٧) .

(١) ابن بسام نفس المصدر السابق القسم الاول المجلد الثانى ص٦٠٠ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب حـ٣ ص٢٥١ (نقلا عن ابن القطان ) ـ ابن الخطيب : اعمال الاعلام ( نشر بروفنسال ) ص١٤٩ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق حـ٣ص٢٥١ ـ ابن الخطيب : المصدر السابق ص١٤٩ .

وحسدا لال جهور فى من حسم عنهم الاطماع ، وجمع دولتهم الشعاع . فقد كان ابن السقاء هذا من الاستقلال بمكانه ، والضبط لسلطانه ، والاستيلاء على ميدانه ، بحيث يخيف الأنداد ، ويغيظ الاعداء والحساد . فدس الى عبد الملك بن جهور من جسره على الفتك ، والى ابن السقاء من ألقى فى روعه حب الملك ، وكلاهما راش وبرى ، حتى جرى القدر بينهما بماجرى " . (١)

واذا حاولنا ان نتعرف على أى الآراء أقرب الى الحقيقة ، فيمكن القول أن الرأى الثالث هو أقربها جميعا . فابن حيان صاحب الرأى الأول - برغم ما ذكره الدكتور مكى من أنه كان يتصف بالموضوعية الشديدة والبعد عن الهوى - (٢) كان متأثرا بحبه الشديد لوطنه قرطبة ولبنى جهور الذين عمل فى خدمتهم فترة من الوقت ، ولهذا التمس العذر لكل تصرفاتهم ، والدليل على ذلك أن ابن حيان عندما يتحدث عن عبدالملك بن أبى الوليد يصفه بأنه شبل أسد جهورى ، على الرغم من أن الموءرخين أجمعوا على سوء تصرف عبدالملك وطيشه الذى أدى فى النهاية الى سقوط دولة بنى جهور فى يد المعتمد بن عباد . نقول أن ابن حيان اختلف حكمه على ابن السقاء من فترة لأخرى ، فقد مدحه فى بداية الأمر ، ثم لم يلبث أن انقلب هذا المدح الى ذم شديد ، وهذا التغيير فى موقف ابن حيان قد لاحظه ابن بسام الشنترينى وعلق عليه بقوله : " وقد رأيت ابن حيان مدح ابن السقاء فى غير ما موضع من كتابه . " (٣) ، بل ان ابن حيان نفسه فطن الى ماقد يلاحظه القارىء من تناقض عند حديثه عن ابن السقاء ، وحاول أن يبرر هذا الاختلاف فقال : " وقد كنت كتبت من وصف ظاهر محاسنه أوان اعتلاقه بقهرمه أميرنا محمد بن جهور ، وعددت من حسان خصاله مالم يبعد عن الصدق عنه ، لأخذنا بظاهر ما تموه فى العيون وقت بنائه لنفسه وتنفيقه لكساده من طأة الخلق وحسن الاحتمال ولين الحجاب ، وخفة المواطأة ، وجودة الوساطة ...

---

(١) ابن بسام : الذخيرة . القسم الاول المجلد الثانى ص٦٠٨ـ٦٠٩ .

(٢) انظر مقدمة كتاب المقتبس لابن حيان بقلم الدكتور / محمود على مكى ص ٣٧ .

(٣) ابن بسام : الذخيرة . القسم الرابع . المجلد الأول ص ٢٣٩ . انظر كذلك : ابن الأبار : الحلقة السيراء تحقيق د . حسين مئونس . القاهرة ١٩٦٣ جـ٢ ص ١٨٦ .

الى أن ارتفعت بزوال سلطانه، وأمان عدوانه ، ففارقنا الحزم فى ذكره ، ولزمنا العذر عنه بالنقض لما أسلفناه من تقريظه " [١] . والواقع ان ابن حيان لم يتناقض مع نفسه عند حديثة عن ابن السقاء ، لانه كان يسجل ما يراه من تغيرات وتناقضات فى الاحداث وفى الأشخاص ، فالتغيير هنا ليس فيه هو بقدر ما هو فى الحدث أو الشخص الذى يعيش فيه أو معه ، فهو مرآة زمانه وعصره ، هذا العصر الملىء بالمتناقضات . وعلى هذا الأساس فان رواية ابن حيان السالفة يجب أن تتناولها بقدر من الحذر، خاصة وأن هذه الرواية اعتبرت بشهادة الموءرخين القدماء والمحدثين احدى سقطات ابن حيان القليلة [٢] .

ويظهر لنا مدى تأثر ابن حيان بظروف عصره ، فى تحامله على ابن السقاء فى عدة مواضع من روايته ، فقد ذكر ان أبن السقاء استبد بأمور الحكم فى قرطبة . ثمة دليل ثالث يوضح لنا مدى تحامل ابن حيان على ابن السقاء ، فابن حيان يذكر أن ابن السقاء استبد بأمور الحكم فى قرطبة ، وأنه كان يصرف الأمور من تلقاء نفسه ودون الرجوع لأبى الوليد بن جهور . [٣] بيد أن نصا اورده ابن القطان يفهم منه أن ابن السقاء كان يشاور أبا الوليد فى كل امور الدولة ، يقول ابن القطان " فضم عبدالملك رجاله وأدخلهم فى بعض الغرف من دار أبيه ، وأعطاهم السلاح وأخذ هو سكينا بيده وبقى ينتظر ابن السقاء، لانه كان يأتى أباه فى كل يوم ويفاوضه بالأمور " . [٤]

دليل آخر على تحامل ابن حيان ، فقد سبق أن ذكرنا أن ابن حيان اعتبر أن هدم قصور الأمويين القديمة بقرطبة ، وما تبقى من أطلال قصورهم فى الزهراء من الأسباب التى جعلت عبدالملك بن أبى الوليد يسعى للتخلص من وزيره ، ولو أننا أمعنا النظر قليلا لوجدنا أن ابن السقاء لم يرتكب جرما يستحق عليه

---

(١) ابن بسام : نفس المصدر ص ٢٤٠ - ٢٤١ ( نقلا عن ابن حيان من كتابه المسمى : المتين ) .

(٢) د . محمود على مكى : مقدمة كتاب المقتبس ص ٤٠ .

(٣) ابن بسام : المصدر السابق . القسم الرابع . المجلد الاول ص ٢٤١ ( نقلا عن ابن حيان ) .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب حـ ٣ ص ٢٥١ ( نقلا عن ابن القطان ) .

القتل ، فقصور الامويين بقرطبة أو قصور ومبانى الزهراء كلها تعرضت للتخريب والتدمير قبل أن يتولى ابن السقاء أمر دولة بنى جهور، فمنذ أن اشتعلت نيران الفتنة عام ٣٩٩ هـ /١٠٠٨م ، وتلك القصور والمبانى تتعرض للهدم والتخريب ، ففى بداية الفتنة تعرض القصر الخلافى بقرطبة لهجوم الثوار المناوئين للخليفة هشام المؤيد ، وقاموا بنقب القصر والدق لأبوابه (١)، كما نهبت الزاهرة (٢) عقب تنازل الخليفة هشام لابن عمه محمد بن هشام بن عبدالجبار الملقب بالمهدى عن الخلافة ، فاقتحمت العامة قصور الزاهرة وانتهبت ما فيها من مال مخزون وآلة ومتاع وفرش وآنية (٣). ثم تعرضت منازل البربر بقرطبة لهجوم العامة حينما صب الخليفة المهدى جام غضبه عليهم نتيجة لمؤزارتهم لهشام بن سليمان الثائر عليه (٤). كما قام واضح الفتى بهدم مدينة الرصافة واحراقها خوفا من أن يتمكن البربر من الدخول الى قرطبة من هذه الناحية. (٥)

وفى أيام الخليفة سليمان المستعين (٤٠٠-٤٠٧هـ/١٠١١-١٠١٧م) اقتحم البربر مدينة الزهراء وقاموا بنهبها وتخريب القصر والجامع والديار وذلك عام ٤٠١هـ/١٠١١م. ثم قام البربر مرة أخرى باقتحام مدينة قرطبة فى شوال ٤٠٣هـ/١٠١٣م فأحدثوا بها الكثير من الخراب (٦). وفى أيام الخليفة المستكفى (ذى القعدة ٤١٤هـ - ٤١٦هـ/١٠٢٤-١٠٢٥م) تعرضت قصور عبدالرحمن الناصر

---

(١) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص١١٠ - المقرى : نفح الطيب، حـ١ ص٥٧٦.

(٢) الزاهرة : مدينة انشاها المنصور بن ابى عامر عام ٣٦٨هـ فى الجهة الشرقية من أطراف قرطبة لتكون مقرا وسكنا له ولاعوانه.

(٣) ابن الخطيب : المصدر السابق ص١١١ ، د. عبدالعزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة حـ١ ص١١٠-١١١ ،

Levi-Provencal: L'Espagne musulmane au Xe siecle,Paris, 1932, PP. 330-331-Garcia Gomez: OP. Cit. P 278

(٤) ابن الخطيب : نفس المصدر ص١١٣.

(٥) ابن عذارى : المصدر السابق حـ٣ ص١٠٢

(٦) ابن الخطيب المصدر السابق ص١١٨

للهدم والتخريب ، حيث ذكر ابن عذارى ذلك بقوله " وفى أيامه استؤصلت جدة الناصر بالخراب وطمست أعلام قصر الزاهرة ، فطوى بخرابها بساط الدنيا وبتغيرها تغير حسنها " (١) . وفى أيام الخليفة المعتد بالله اخر خلفاء الدولة الأموية (٤١٨-٣٢٢هـ/١٠٢٧-١٠٣١م) أجبر الحكم بن سعيد وزير المعتد بالله كبار التجار فى قرطبة على شراء الحديد والرصاص المجلوب من القصور الأموية المتخربة أثناء الفتنة (٢) .

ولا شك أن عمليات التخريب والهدم التى اجتاحت قرطبة والزهراء والزاهرة ابان فترة الفتنة ، توضح أن ما قام به ابن السقاء ومساعده ابن باشه ليس الا حلقة فى سلسلة الدمار الذى تعرضت له قرطبة وقصورها ومبانيها ، وليس معنى هذا أننا نبرىء ابن السقاء من تهمة الاجهاز على البقية الباقية من هذه القصور ، ولكن ما نريد أن نقوله أن ما فعله ابن السقاء لم يكن بدعة من البدع ، بل سبقه من قام بما هو أشد وأنكى فى هذا المجال .

بقيت مسألة أخيرة ذكرها ابن حيان وتتعلق باستيلاء ابن السقاء على أموال الخراج من قرطبة ، يأخذ منها كيف شاء وينفقه فيما يريد . وفى واقع الامر لم يكن ابن حيان متجنيا على ابن السقاء فى هذه الناحية ، والدليل على ذلك ما ذكره ابن سهل الاندلسى فى كتابه " الاحكام الكبرى " ، حيث أورد نصا لوثيقة تتعلق بحكم أصدره صاحب أحكام قضاء الجماعة بقرطبة " سراج بن عبدالله بن محمد " ، ينص على عدم أحقية ورثة ابن السقاء فيما خلفه من أموال وضياع ومنازل وعبيد ، وكذلك مصادرة الاموال التى بأيدى أقربائه ومنهم أخوه وابن أخته وصهره ، وقد أصدر القاضى سراج حكمه بعد ان شاور عددا من فقهاء قرطبة فأفتوا جميعا بالحكم السالف ، وكانت حجتهم ان ابن السقاء حينما تولى أمر قرطبة عام ٤٤٠هـ لم يكن يملك من حطام الدنيا شيئا ،

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق حـ٣ ص١٤٢ ـ ابن الخطيب : المصدر السابق ص١٣٦ .

(٢) Garcia Gomez: La ruina de Cordoba. P.282.

د . عبدالعزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة حـ١ ص١١٦

ولكنه عندما قتل عام ٤٥٥ هـ ترك أموالا وضياعا كثيرة ، وقد ثبت لدى القاضي سراج والمشاورين أن جميع ما تركه ابن السقاء انما اغتصبه من أموال المسلمين . وكذلك ما تركه أقرباؤه ، لأنهم حصلوا على هذه الاموال مستغلين وجود قريبهم ابراهيم بن محمد في السلطة . وبناء على ذلك فان ما أخذ بغير حق يجب رده الى أصحابه، وأفتى الفقهاء بأن تؤول التركة التي خلفها ابن السقاء وأقرباؤه - ما عدا ما صحت ملكيته لهم - الى بيت مال المسلمين (١).

## النتائج التي ترتبت على مصرع ابن السقاء :

ترتب على مصرع ابن السقاء عواقب وخيمة على دولة بني جهور وقرطبة ، فقد اشتد النزاع بين ولدي أبي الوليد بن جهور : عبدالرحمن وعبدالملك . وقد حاول أبو الوليد ،- الذي أصيب بشلل ألزمه داره - أن يرضي ولديه ، فقسم السلطة بينهما ، بيد أن عبدالملك تمكن من الاستبداد بالأمر دون أخيه ، وجمع حوله سفلة الناس هو الآخر ، واضطهد كبار قادة قرطبة حتى نفروا منه ، وقد علق ابن عذارى على ذلك بقوله " وانقبض عن عبدالملك لأول استبداده بالأمر حماته الذين كان ابن السقاء يرفههم برفقه ويصطنعهم بحذقة " (٢). بل تجاسر عبدالملك وتلقب بألقاب السلطان وهو أمر أحجم عنه أبوه وجده ، وتلقب بذي السيادتين المنصور بالله الظافر بفضل الله (٣). أما في مجال السياسة الخارجية فقد انخدع عبدالملك بصداقة المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية الذي خلف أباه المعتضد عام ٤٦١هـ/١٠٦٩م . وقد توهم عبدالملك بن جهور أنه بامكانه الاعتماد على ابن عباد لدفع الاخطار المحدقة بقرطبة خاصة من ناحية بني ذي النون أصحاب طليطلة ولكن المعتمد كان يعمل على تحقيق حلم العباديين القديم في امتلاك قرطبة ، والذي حال

---

(١) ابن سهل الاندلسي :الاحكام الكبرى، وثيقة في اغتصاب ابن السقاء قيم دولة ابن جهور لاموال بيت مال المسلمين في قرطبة، استخرجها وعلق عليها د.عبدالوهاب خلاف مجلة اوراق العدد ٥-٦( مدريد ) ١٩٨٣-٨٢ ص ١٠٢-١٠٣.

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ ص٢٥٧.

(٣) ابن الخطيب :أعمال الاعلام :ص١٤٩.

وجود ابن السقاء وبنى زيرى دون تحقيقة ، ولذلك انقذ جيشه عـام ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م الى قرطبة حيث تمكن هذا الجيش من دخولها والقبض على عبـد الرحمن وعبد الملك ولدى أبى الوليد بن جهور حيث أرسلا الى اشبيليـة ، أما أبو الوليد بن جهور فقد نفى هو ومن بقى من أفراد أسرته الى جزيـرة سلطيش Saltes الواقعة بالقرب من ولبه Huelva حيث توفى هناك بعد أربعين يوما فقط من هذه النكبة (١) . وهكذا سقطت دولة بنـى جهور بقرطبة بسبب سوء تصرف عبدالملك بن جهور ، وقد لانكون بعيدين عن الصواب اذا ما قلنا أن عملية اغتيال ابن السقاء مدبر الملك الجهورى كانت من أهم الأسباب التى عجلت بزوال ملكهم .

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق حـ٣ ص٢٦١ ـ ابن الخطيب : المصدر السابق ص١٥٠ ـ ١٥١ .